أسباب انحطاط المسلمين و ضعفهم

١

فضيلة الشيخ ربيع هادى المدخلى

ما هى أسباب هذه المهانة و الذلة التى وقع فيها المسلمون اليوم ، و ما هى عوامل هذه المسكنة و العيلة ؟ أليسوا هم أمة القرآن و أتباع محمد ﷺ الذى أرسله الله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لوكره الكافرون ؟ تعالوا معى نسلط الأضواء على مواطن الضعف و مكامن الداء و قليل منا الأساة ، و أقل منهم الجادون المخلصون لاكتشاف الداء و تقديم الدواء .

إن الأسباب الرئيسية تتلخص فى ثلاثة أشياء :

١ - الجهل المطبق بمعنى لا اله إلا الله محمد رسول الله .

٢ - الهوى المستحكم والمسيطر على عقول الكثيرين من القادرين على فهمها على ضوء الكتاب و السنة .

٣ - رفض التمسك بكتاب الله و سنة رسوله ، و الاصرار الشديد على عدم الاهتداء بنوره لا فى اصول الدين ولا فى فروعه .

تلكم هى أسباب الرئيسية و هى متشابكة متلازمة بعضها يمسك بحجزة البعض الآخر ، و سأجعل الكلام عليها كالكلام على سبب واحد ، و سيدرك كل منصف و ناصح لدينه و ربه و أمته أن ما ذكرت من الأسباب هى منابع الداء و مستنقعات الوباء التى ينبعث منها كل الجراثيم

القتالة و الأمراض الخطيرة التى أصابت جسم الأمة الاسلامية بالشلل و التمزق .

هذا الثالوث يبدأ من مفهوم هذه الكلمة ، فأكثر من ينتسبون إلى الاسلام لا يفهمون معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، رغم أنهم يرددونها صباح مساء ، لأنهم لا يفهمون المدلول الصحيح و المعنى الأساسى لهذه الكلمة و لا يعملون بها ، و الواقع أكبر شاهد . فلو تقدموا للاختبار فى معنى هذه الكلمة و العمل بها لظهر فى هذا الامتحان أسوأ نتيجة عرفها التاريخ ، ولو أن جماعة من الدعاة المخلصين هتفوا بهؤلاء المسلمين و بذلوا أقصى ما يستطيعون من أساليب الاقناع لاعادة النظر فى هذه الشهادة و تصحيح ما وقعوا فيه من الخطأ لواجهوا من الصعوبات الشديدة والنتائج الفادحة المؤلمة مالا يواجهون بعضه لو دعوا أمة لا تدين بالاسلام .

إن المفهوم الصحيح لمعنى لا إله إلا الله هو أنه لا معبود بحق إلا الله و هذا المفهوم العام ليس فيه كبير نزاع ولكن النزاع يأتى حينما يأتى التفصيل ، فاذا أردنا أن نعرف صفات هذا المعبود ، فالطريق الصحيح و الراى الراجح و المعقول أننا نرجع إلى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة رسوله المعصوم والصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ، فالله قد وصف نفسه فى كتابه بصفات عليا و هى صفات كمال كالعلم و الارادة و القدرة و السمع و البصر والحياة و الكلام ، فقال « إن الله بكل شيئ عليم » « فعال لما يريد » « إنما أمره إذا أردنا شيأ أن نقول له كن فيكون » قد سمع الله قول التى

تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فهذا نموذج من القرآن و إلا فالآيات كثيرة جداً تفوق العد و تتجاوز الحصر بحيث إن أكثر آيات القرآن تأتى مختومة بصفة فأكثر من صفات عظمة الله و جلاله .

فالمؤمن الواثق بقول الله المعظم له يؤمن لهذه الصفات العليا ايماناً صادقاً لا يخالجه شك ولا ريب فلا يحرف شيأ منها و لا يعطل و لا يشبه ولا يمثل بصفات المخلوقين بل يؤمن بهـا على أساس « ليس كمثله شيئ و هو السميع البصير »

و لكن كثيراً من هذه الأمة لا يرضون أن يقفوا موقف المسلم لله فيما أخبر و وصف به نفسه و يقفون موقف المعاند المترفع و يأبون إلا تحريفها و تأويلها بدعوى أنهم ينزهون الله بسلبه صفات الكمال ، فأنتم تلاحظون أن الاختلاف قد وقع من أول الطريق و فى الخطوة الأولى فى طريق الايمان و التسليم لله عز وجل .

و لو انتقلنا خطوة أخرى الى صفة الأستواء و العلو و الغضب و الرحمة و أثبتناها بالنصوص الكثيرة من القرآن والسنة مثل « الرحمن على العرش استوى » « خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » فى سبعة مواضع من القرآن .

و أخذنا المصحف و استعرضناه من أوله إلى آخره و وجدنا صفتى الرحمان والرحيم تطالعاننا فى أول كل سورة لمـا وسع العاقل المنصف إلا الايمان القوى بأنها صفات كمال لائقة بجلال الله و كماله ، و لو كان فيها شيئ من النقص لما تمدح بها تعالى و تعاظم ، لأن الله

قد نزه نفسه عن صفات النقص فقال « لم يلد ولم يولد و لم يكن له كفواً أحد » و لما أدعى المشركون لله الولد . قال تعالى « لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه و تنشق الأرض و تخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، و ما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ؛ إن كل من فى السموات و الأرض إلا آتى الرحمن عبداً » فلو كان فى هذه الصفات نقص لما ذكرها الله فى كتابه فضلا عن أن يكرر بعضها عشرات المرات و بعضها مآت المرات .

و مع وضوح هذا تجد قسماً أكبر من الفريق الأول من الأمة الاسلامية قد سلك طريق الفريق الأول ، و هو التحريف و التعطيل ، و رضى لنفسه هذا التناقض الواضح المكشوف .

و نحن إذا تجردنا عن الهوى و التعصب و قصدنا الانصاف و العدل لرأينـا أن الحق هو الوقوف و التأدب مع الله و رسوله و كتابه ، و الايمان بأن هذه الصفات حقائق ثابتة لله عز وجل لا تشبه صفات المخلوقين ، لائقة بجلال الله و كماله و عظمته ، فكما أن ذاته لاتشبه ذوات المخلوقين ، كذلك صفاته لاتشبه صفات المخلوقين ، و إذا آمنا بها على هذا الوجـه فليس هناك أى مبرر لمن يحرف كلام الله عن مواضعه تأثراً بشبهات ساقطـة ، و يسمى هذا التحريف تنزيهاً أو تأويلا .

فالاصرار الشديد على هذا التحريف الجرى و التعطيل الشنيع الذى لا يقيم وزناً لكتاب الله و سنة رسوله ﷺ ، هو العقبة الكؤود التى تحول دون وحدة الأمة الاسلامية و استعادة مجدها والنهوض بها من عثرتها

و التبة فى هذا الخلاف تقع على العلماء فاذا كانوا مخلصين لله و لدينهم و لأمتهم ، و يشعرون بآلام هذه الأمة و يتألمون للجراحات الخطيرة فى جسم هذه الأمـة ، فلا عليهم إلا أن يرجعوا إلى كتاب ربهم و سنة نبيهم ، و يتمسكوا بهما و يعضوا عليهما بالنواجذ ، وأن يجعلوا هذه التوجيهات السديدة نصب أعينهم ، « من اتبع هداى فلا يضل و لا يشقى ، و من أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، و نحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى و قـد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، و كذلك اليوم تنسى » « فمن بلغ هداى فـلا خوف عليهم و لا هم يحزنون » و قال الرسول الكريم ﷺ « تركت فيكم ما إن تمسكتم به ان تضلوا بعدى ابداً كتـاب الله وسنتى » « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك .

والحاصل أن معنى الله هو المعبود لأتصافه بصفات الكمال ، وقد أخبرنا هذا المعبود بصفات كماله و نعوت جلاله فى كتـابه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه و على لسان رسوله الذى لا ينطق عن الهوى ، و أنتم ترون أن الأسباب الثلاثة التى قدمناهـا لكم و هى الجهل المطبق و الهوى المستحكم و رفض التمسك بكتـاب الله و سنـة رسوله قد لعبت دوراً كبيراً فى تشتيت جمع المسلمين و بعثرة صفوفهم وتمزيق كلمتهم ، ولا سبيل إلى جمع المسلمين إلا بازالة هذه العقبات .

ولننتقل الآن إلى المدلول الصحيح و الأساسى لمعنى لا إله إلا الله ، قلنا فى ما سلف إن معناها لا معبود بحق إلا الله . معنى يثبت العبادة لله وحده ، فالعبادة حق خالص لله لا يجوز أن يعبد سواه .

و هذا أمر مسلم به فى الجملة و لكن عند ما يأتى دور التفصيل ، يأتى الخلاف الشديد المذهل الذى لا يكاد أن يعذر فيـه من يصر على البقـاء على الخطأ و الجمود على الباطل ، لأنه خلاف يصادم النصوص الصريحة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ و عمل السلف الصالح لهذه الأمة .

لنأخذ مسألة واحدة من مسائل هذا النزاع ، هى مسألة الدعاء ، وهى جزء من العبادة بدون شك بنص القرآن و السنة ، فاذا تقرب العبد إلى الله بهذه العبادة كان متقرباً إليـه بأفضل العبادات ، قال رسول الله ﷺ « الدعاء هو العبادة » و قال « ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » فسمى الدعاء عبـادة ، و قدورد فى الحديث « إن الله يغضب على العبد إذا أعرض عن سؤاله و لقد قال أحد شعراء المسلمين فى هذا المعنى :

لا تسألن بنى آدم حاجة ... و سل الذى أبوابه لاتحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

و هذه الحقيقة قد عنى القرآن بها عنـاية فائقة ، فمنها الأدلة التى أسلفناها . و منها قوله تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

فالمسلمون يدعون الله و يكثرون من دعائه عملا بأمر الله إياهم ، و توجيههم إلى دعائه ، و يعتبرونه من صميم دينهم ، و لكن الأمر المؤلم و المحزن الذى يفتت كبد المؤمن و يوقعه فى الذهول والحيرة أنهم مع اعترافهم أن الدعاء عبادة تجد الكثرة الساحقـة ، منهم يصرفون هذه العبادة لغير الله و يتجهون فى ضراعة و ذلة و استكانة بهذه العبادة لمن

لايملك لنفسه ضراً ولانفعاً ، وهذا هدم خطير لقاعدة الاسلام الكبرى « لا إله إلا الله » ، والقرآن يزجر زجراً شديداً و يحذر وينذر عن ذلك و يبدى و يعيد بشتى الأساليب :

١ ـ قال تعالى « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب و المطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز »

فهل بلغ الأمر بالمسلمين إلى أنهم لا يعتبرون أنفسهم من الناس فلا يدخلون فى هذا الخطاب .

٢ ـ « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »

٣ ـ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه و ما هو ببالغه و ما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

٤ ـ قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » .

٥ ـ « و من أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء و كانوا بعبادتهم كافرين » .

٦ ـ « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك و لا يضرك فان فعلت فانك إذاً من الظالمين » .

٧ ـ « قل أدعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض و ما لهم منهما من شرك و ما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له »

هذه سبع آيات بينات تعالج بجلاء و وضوح قضية الدعاء لغير الله و إنها لحجج قوية و براهين قواطع ، تدمغ و تدين كل من يدعو أحداً من دون الله سواء كان هذا المدعو نبياً مرسلا أو ملكا مقرباً أو رجلا صالحاً ، و إنها لا تزال حجة لله قائمة إلى أن تقوم الساعة لا يخرج منها فرد من أفراد البشرية سواء سمى نفسه مسلماً أو غير مسلم . فكما تناولت قريشاً و العرب بالأمس مسلمهم و كافرهم تتناول الناس جميعهم مسلمهم و كافرهم اليوم و غداً .

و سيتبين لكم ـ أيها المسلمون ـ إذا تجردتم من الهوى والتعصب أن كل ما دهيتم به من الذل و الضعف و الهوان و التفرق إنما هو من الاعراض عن القرآن و عدم الاهتداء به ـ فالى القرآن من جديد .

« يتبع »

❀❀❀❀